



أيار - حزيران ١٩٦٣

العدد السابعة والخمسون

اليازجي والقرآن

في مجمع البحرين
بقلم ظافر القاسمي

القرآن الكريم ، ليس شعراً ، وليس نثراً ، وإنما هو قرآن . كذلك قال الدكتور طه حسين في إحدى أماليه . وكذلك قال غيره من أئمة اللغة والبيان ، في القديم . وما وقع لكاتب ، على مدى العصور ، أن اقتبس منه بعض آياته ، إلا ورأيتها تقفز وجدها من بين السطور ، تطن عن نفسها ، أنها لا تشبه ما قبلها ، ولا ما بعدها . وتبدو كاللزوجة الفريدة ، تبهير الأعين ، وتحلوا في السع ، وترن في الأذان ، وتدخل إلى القلب . ولعل أبا سفيان ، يوم استرق السع من الرسول الأعظم ، وهو في غار حراء ، يرتل آيات الله العينات ، قد أcriب قبل إسلامه يوم الفتح عن شعور كل انسان ، يوم مثل عن القرآن فقال : ان له حلالة ، وان عليه لطلاوة ، وان له لصولة في القلوب ليست بصولة مبطل^(١) .

وما زال الكتاب والمنشور ، منذ أن أخذت صناعة الكتابة طريقها في

(١) وفي رواية ان قائل هذه الجملة هو الوليد بن المغيرة والد خالد بن الوليد .

الترسل ، يـمـون الى الاستشهاد ببعض الآي ، إما لتأكيد حججهم ، وتقوية بيئتهم ،
وإما لتزيين مقالهم ، وترغيب القارئ في نتاجهم ، وإما للتبرك بحكم التزويل ،
الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولقد نشأ علم البلاغة بعد ان نزل القرآن الكريم ، ورأى أئمة هذا العلم
تهالك الكتاب والمنشئين على العب من هذا المحيط الذي لا ينضب ، فافردوا
في كتبهم بحثاً خاصاً سمّوه « الاقتباس » ونشوا به استعانة الكاتب بآيات القرآن
الكريم فيما يكتب ، وحصروا هذه التسمية بهذا المسمى . وأخذنا منذ طفولتنا
نرى الكاتب المبدع ، هو الذي يحسن الاقتباس ، ويعرف مواضعه ، ويأتي
بالآية الصكرية ، في السياق الذي يلائمها . وما زلت اذكر ان مشايختنا الاولين ،
رحمهم الله ، كم شجعونا على حفظ بعض السور ، وعلى تفهم معانيها ، وكم رددوا
على مامعنا أنها الثروة الادبية واللغوية الكبرى ، التي لا تفتي آثارها أبد الدهر ،
والتي تعني كل متأدب ناشئ ، فيجد فيها ما يستحيل أن يجده في أي مصدر أدبي
أو لغوي آخر . واعتقد أن هذا السبب نفسه ، من بين الاسباب التي حمت
ادارة الازهر على اشتراط حفظ القرآن الكريم بكامله لمن اراد الانتساب اليه .
فببر عدة للفقهاء وللنفسر والمحدث والاصولي والقاضي والمفتي والاستاذ . وهو
كذلك عدة ، آية عدة ، للأديب والكاتب . ولعل أصدق مثال معاصر على
صحة هذا الرأي وصرابه ، أزهرمان عظيمان ، لم يكونا في سلك الفقهاء ، وإنما
كانا في سلك الادباء ، هما طه حسين وأحمد حسن الزيات . اقرأ اذا شئت ، ما
كتبه طه حسين ، ولا سيما على هامش السيرة والفتنة الكبرى ، وقرأ مجموعة
مقالات الزيات في الرسالة ، وانظر كم كان أثر القرآن الكريم عظيماً في اسلوب
كل منهما ، وكم كان الاقتباس واضحاً في ترسلها .

وقد ظهرت على كتاب لعلم من اعلام العربية في القرن التاسع عشر ،
حموي الاصل ، لبناني النشأة ، عيسوي النحلة (على حد قوله في مقدمته) ، هو
الشيخ ناصيف اليازجي . وأما كتابه فهو (مجمع البحرين) .

أراد اليازجي ناصيف ، ان يحنو حذو الحريري والبديع ، في المقامات ،
فوضع مجمع البحرين ، وأسند الاحاديث فيه الى سهيل بن عباد . .
ولست أريد أن أحدثك اليوم عما ترك هذا الكتاب في نفسي من آثار

عميقة ، ومن مشاعر مضطربة . وما زخر به من فنون البلاغة ، وضروب الفصاحة ، وفرائد الشاهد ، والاشته السائرة ، وروائع الحكمة ، وغير ذلك مما لا تحيط به مقالات . وانما أريد أن أدلك على بعض المواضع ، التي زينت فيها اليازجي كتابه بالاقتباس ، فكان حلية أتقن نظمها ، وأجاد وصفها ، وأبدع حبكها ، فاذا هي فتنة للناظرين .

وقيل أن أسوق اليك بعض هذه النماذج ، لا بد لي من أن أشير الى أمور ، بعضها أمثلة الملاحظة ، وبعضها فرضه الاستنتاج ، وبعضها تدعو اليه طبيعة البحث : فأما أولها فهو أنني أكاد أجزم أن اليازجي قد حفظ معظم القرآن الكريم ، ان لم يكن قد حفظه كله ، لأن هذه القدرة على الاقتباس ، لم تكن لتسنى لرجل شدا شيئاً من سوره ، او ألم بها إلمامة المطلع السطحي .

واما ثانياً فهو انه قد جاء بالآية حياً دون تعديل فيها أو تغيير ، ودون تقديم أو تأخير ، وجاء بها حياً آخر مع شيء يسير من التعديل ، لم يذهب ببيائها ، ولم يفقدها شيئاً من روائها ، لانه كان أديباً مفرط الذوق ، يتقن التصرف في الالفاظ ، فلا يدع فيها مكاناً للقلق ولا للاضطراب ، ورائع الاسلوب ، فلا يسمح فيه بشيء من الاسفاف او التبذل .

وأما ثالثاً فهو أن اليازجي لم يقتبس آية واحدة مرتين اثنتين في مقاماته كلها ، وقد بلغت ستين مقامة ، في نحو ثلاثة وخمسين صفحة ، من القطع الكبير . وهذا دليل على أنه قد مارس دراسة القرآن الكريم وحفظه ، فانتقى من فرائد كنوزه ما دعته اليه الحاجة ، دون تكرار ولا اعادة .

وأما رابعاً فهو أنه قد أحسن الاقتباس في جميع المواضع ، فما من مرة اقتبس آية من الآيات الا وشعرت بأنها خير مما يمكن ان يجري مع سياق الموضوع الذي يعالجه . ولا أبالغ اذا قلت : ان مثل هذه الاجادة ، لا تقتضي حفظاً للقرآن الكريم على أنه المثل الاعلى للبلاغة في أدبنا العربي ، ليس غير ، بل تقتضي أيضاً معرفة عميقة ، ودراية تامة بأسباب النزول .

وأما خامساً ، فهو أنني لم أجِد آية محرفة أو مبدلة ، بحيث ينبر الذوق عن قراءتها . ولقد أشرت الى أنه ربما قسم وأخر ، في بعض الفاظ الآية ، وربما زاد عليها أو نقص منها ، لضرورة السجع ، الذي التزمه في جميع المقامات .

وأما سادسها وآخرها ، فيور وان لم يكن ذا صلة وثقى بالاقتباس ، وإنما هو ذو صلة بالتعليل الذي أراد لإحسان اليازجي في الاقتباس . ذلك هو ثقافته الإسلامية الواسعة ، ومعرفته بالالفاظ الاصطلاحية الدقيقة ، وعلمه بالمائل الخلافية الفقهية ، التي لا يمكن أن يُرزقها الا من لازم كتب أئمة المسلمين ، وأدام صحبتها ، وعجم عودها ، وخبر ما فيها ، على تعددها واختلافها وسهولتها . وهذا العنق بالثقافة الإسلامية ، هو بالبداحة فرع عن المصدر الاول للشريعة ، وهو القرآن الكريم . وليس في هذا شيء . من العجب ، وأنا العجب العجيب هو اعلان المؤلف في خاتمة كتابه ، أنه لم يأخذ هذه العلوم كلها عن أحد من الاساتذة ، وإنما اكتسبها بالجهد الشخصي المحض ، فقال^(١) (ص ٣٢٥) :

«قد تلقيت هذه الصناعة من باب التطفل والهجوم ، إذ لم أوقف على أستاذ قط في علم من العلوم ، وإنما تلقفت بجهد المطالعة ، وأدركت ما أدركته بتكرار المراجعة . فان أضبت فرمية من غير رام ، وان أخطأت في معذرة عند الكرام ولعمري ان ناصيف اليازجي ، قد ضرب في هذا أروع مثال للعصامية الطيبة ، التي تقوم على الدأب والجد ، والسهر والكد ، فتبني صرحاً عالياً من صروح العلم ، وتقيم مجداً خالداً من أمجاد الثقافة ، التي لم يكن لها من سبيل الا التعلم الذاتي . ولست استقصي اليوم كل ما في الكتاب من الاقتباس ، لكن حسي من القلادة ما أحاط بالجيد . قال اليازجي :

— فأخذ الشيخ القلق ، وقال أَعُوذُ بِرَبِّ أَلْتَلِقُ ، مِنْ شَرِّ مَا حَلَقَ - ص ١٢

— نقلت : إن الشيخ قد أتى الله بِعَلْبِ سَلِيمٍ ، وَأَلَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ - ص ٢٣ .

— ما تقول في دعوى هذه الجارية ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ؟ - ص ٣١ .

— قالوا : قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَشِينُ ، فَقَدْ أَحْسَنْتَ وَمَا جَزَاءُ

الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ - ص ٣٣ .

— قلت : ليس معي الا دينار واحد فاقتسماه ، والا فَنُظِيرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ

من رزق الله - ص ٣٤ .

— هَانَ تَسَكَّتْ بِالْمُرُورِ الرَّوْتَمِيُّ ، وَإِلَّا فَالَهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى - ص ٣٤ .

(١) ارقام الصفحات المشار إليها هي من طبعة صادر عام ١٩٦١ - بيروت .

- قد فرضت من مالي نصاباً ، فخذهُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً - ص ٤٤ .

- فلما آتس الندى - وَرَجَدَ عَلَى النَّارِ هَدَى - ص ٥٨ .

- تبطننا الشرى في ليلة حالكة الأديم ، وقد قدّرنا القصر منازل حتى عاد كالمرجون القديم - ص ٦٧ .

- بتنا نجس في الرباط عند القوم ، وانا لم نأخذني سنة ولا نوم - ص ٧٣ .

- واذا رجل قد تخلل اليه الأسرى ، كأنه من آيات ربه الكبرى ، وقال :

هيات لا تغني نفس عن نفس شيئاً ولا ترز وازرة ووزر أخرى - ص ٧٤ .

- قال : يا أمة الله صبرا ، فإن مع الأسر يسراً - ص ١٠٠ .

- ولا تمش في الأرض مراحاً ، ولا يستفرك الدهر فرحاً او ترحاً -

ص ١٠٥ .

- فجدوا في جدد الفجر ، وتواصوا بالصبر ، على نواب الدهر - ص ١١٦ .

- أنت في ضيافة الوالد والولد ، ما دمت حلاً بهذا اللد - ص ١٣٤ .

- وليعتبر كل جبار عنيد ، ويذكر من كان له قلب أو ألقى السبع

وهو شهيد ، واعلموا أن الله قد أرسلني إليكم نذيراً ، وأقامني بينكم

يسراً جاً مثيراً ، لأذكركم يوماً عبوساً فنظيراً - ص ١٤٨ .

- واذا شيخ أطول من شهر الصوم ، قد قام في صدر القوم ، وهو يشيم قارة

بالنفس ، وطوراً بالتجويري الكئس ، ويلهج بتواضع النجوم - ص ١٧٠ .

- شهد الله أنك لقطب السماء ، فانظر لنا واتق الله إننا يخشى الله

من بياده الملئاء - ص ١٧٣ .

- ولا تحسب أن الإنسان يترك سدى ، ولن يحاسب غداً ، والسلام

على من أتبع الهدى - ص ١٩٤ .

- فلما فرغ منعه من الشياه ما تيسر ، وقالوا : صل ربك وأنخر -

ص ٢٣٦ .

- فتقننا غز لنا أنكنا ، وعدنا فاقنا ثلاثاً - ص ٢٥٣ .

- وويل لكل همة ليرة ، لا يعرف حق التاج والحزرة - ص ٢٦١ .

- واذا قوم من كرام الوجود ، يسئاهم في وجوههم من أثر السجود ،

وعليهم لوائح الجردة والجود، قد اقبلوا بوجوه ناضرة، إلى ربّها نظرة، وهم
يَسْجُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَيَسْتَفِيرُونَ لَنَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ - ص ٢٧٦
وبعد فهذه غاذج من اقتباس اليازجي في مجمع البحرين، لن تستطيع ان تدرك
سحرها وروعها، ما لم تقرأها في مواضعها من الكتاب، وتعرف ما قبلها وما
بعدها. وهي هنا على اقتضاها وابتسارها، حلوة الصور، بديعة التركيب، محكمة
اللبك، أخاذة الاسلوب. ولن يفنيك هذا كله عن الرجوع الى الأصل،
وتذوق ما فيه من جمال القصة، وسلاسة وقائمه، لتتم بحاسن الاقتباس فيها.
ذكر اليازجي أنه فرغ من تبييض كتابه في شهر نيسان سنة ألف وثمانين
مئة وخمس وخمسين، أي قبل مئة وثمان من الستين، وهو العصر الذي اعتادت
كتب تاريخ الادب العربي أن تسميه نهاية عصر الانحطاط، ومبدأ انبعاث
الأدب العربي الحديث. واطلي أوفق في حديث آخر الى كشف العناصر التي
اعتمد عليها هذا الانبعاث، وأهمها، كما هو واضح من هذا الكتاب، الاقتباس
من القرآن الكريم والحديث، وتضمين أمثال العرب، وروائع الشعر القديم،
والاستشهاد بكلام البلغاء. فهذه العناصر تقوى الكلمة الادبية الحققة، وبدونها
تبقى الكتابة والانشاء كالميكال العظمي لا حياة فيه ولا لحم ولا دم.
ويقتضيني الوفاء، أن أذكر هنا أستاذين كبيرين شقيقين، أخذت العلم عنهما، ثم
نعمت بصدقتها وعطفها، كنا نحفظان الكثير من القرآن الكريم، فحفلت كتبنا
بالاقتباس منه، وما أذكر أنني جالستها مرة الا ورأيت الاستشهاد بآياته اقرب
اليها من طرف الثمام، فكانت كتبها مصدرًا من مصادر العلم، كما كانت طرفة
من طرائف الأدب، وكأنت مجالسها تفيض بالآتي والحديث والشعر والنثر، وتزخر
بالفوائد والفرائد، وأنا في كثير من معرفتي عيالٌ عليها، ومنسب اليها، واني
لأجرّ ذيل التيه بهذا السند. كنا نادرتي زمانها حقًا، وهيات أن تلد الآهات
مشاهها. انها فارس الحوري وفاتر الحوري. واين من يشبهها من ابناء هذا الزمان؟
فهل للمسؤولين عن شؤون التعليم في بلاد العرب أن يذكروا ما نسوا، وأن
يولوا كتاب الله المقام الاول في تنية المكلة الادبية والنقوية؟

نزيل بيروت

ليل ٣١ اذار ١٩٦٣

ظافر القاسمي نقيب المحامين